

النقد الماركسي لجدل الطبيعة

المدرس الدكتور
عقيل صادق الأسدي
جامعة البصرة - كلية الآداب

الملخص

يحاول البحث توضيح النقد الماركسي لجدل الطبيعة وموقف النقاد الماركسيين من المسألة المهمة في الفلسفة الماركسية إذ إنّ الماركسية جعلت قانون الجدل من القوانين والأسس الرئيسية في بناء فلسفتها ، الا أن بعض المفكرين الماركسيين قد رفضوا تعميم الجدل على الطبيعة ولم يقبلوا هذا التعميم الذي رأوا فيه الخروج على مبادئ الماركسية وعليه فإن البحث ركز على موقف هؤلاء النقاد لجدل الطبيعة وما طرحوه من أفكار وأدلة في هذا الصدد.

The Marxian Criticism of nature Argument

Lect . De. Akeel Sadiq Al Assadi
Basrah University – College of Arts

-

The current paper tries to figure out the Marxist criticism to the argument about nature and the attitudes of the Marxist critics towards this important issue in Marxist philosophy. It is known that Marxist made argument law as one of the major laws and foundation in building their own philosophy. But in this concern, some of the Marxist thinkers refused generalization of argument about nature for they believe that such thinking can be regarded as aggression from Marxist principles. Thus the current paper focuses on opinions of those critics to argument about nature and their ideas and proofs in this regards.

مقدمة البحث

لقد تنوع النقد الذي وجه للفلسفة الماركسية تنوعاً كبيراً ، فعندما ننظر الى النقود التي وجهت للماركسية نرى أنها مختلفة ومتنوعة حسب ما رأته هذه الفلسفات أو الشخصيات من جوانب معينة في الماركسية لاتلائم مع منطقتها أو بنائها أو نظرتها للوجود والإنسان، أو مسائل أخرى، أو أن بعض هذه النقود رأته في الماركسية فلسفة لا تستطيع أن تعطي تصوراً حقيقياً عن الوجود أو أنها تجانب الحقيقة والواقع تجانباً كبيراً.

ونستطيع القول أن أكثر المدارس الفلسفية الحديثة والمعاصرة التي تعرضت للنقد هي الفلسفة الماركسية، فما نحن نرى صفاً من نقاد الماركسية يختلفون فيما بينهم ولكنهم يشتركون بنقدهم للماركسية .

منها النقد الإسلامي، ونقد الوجودية، ونقد كارل بوبر ونقد الماركسيين أنفسهم الذين نحن بصددهم بيان طبيعة نقدهم وأي المسائل التي نقدوها في الفلسفة الماركسية ، فهم ينتمون لهذه الفلسفة ولكنهم يختلفون مع بعض أفكارها أو بعض من يمثل هذه الفلسفة . ومن المسائل الفلسفية التي كانت محطاً للنقد من قبل من ينتمي لهذه الفلسفة (**الفلسفة الماركسية**) هي مسألة جدل الطبيعة ، وهذا البحث هو محاولة لإبراز بعض الجوانب النقدية لهذه المسألة المهمة التي تعتبر من أصول الفلسفة الماركسية .

وعليه فالبحث ركز على كل يتعلق بهذه المسألة (**جدل الطبيعة**) من حيث تعريفه وبيان أهميته في الفلسفة الماركسية وأقوال مؤسسي الماركسية أمثال ماركس وأنجلس ولينين حول

هذا الموضوع وموقف بعض الفلاسفة الماركسيين منه إذ أن هؤلاء الفلاسفة كان لهم أكثر من نقطة استفهام حول جدل الطبيعة فهم وأن كانوا ينتمون للفلسفة الماركسية ويؤمنون برؤيتها ومسائلها إلا أنهم كان لهم موقفهم الواضح والصريح من مسألة جدل الطبيعة ، وتأسيساً على كل ما أسلفنا فالبحت يرسم جزء من الصورة النقدية للفلسفة الماركسية .

أولاً - ما هو الجدل :

تعد الفلسفة الماركسية من الفلسفات المادية التي فسرت العالم تفسيراً مادياً، فكل شيء في العالم تحكمه قوانين المادة ولا يوجد مجال لكل ما هو خارج المادة ، ولقد مثلت المادية اتجاهين رئيسيين هما :

أولاً : الاتجاه الميكانيكي الذي فسر العالم وفقاً لقوانين الميكانيك العامة .

ثانياً : الاتجاه الديالكتيكي أو الجدلي الذي تتبناه الماركسية الذي مبدؤه أن المادة هي كل الموجود وأن مظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوى المادية^(١) .

والجدل أو الديالكتيك له تعريفات متعددة قد أخذت معظمها الطابع المنطقي، فقد قسم أفلاطون الجدل على قسمين: جدل صاعد، وجدل نازل، فالصاعد يرفع الفكر من الإحساس إلى الظن ومن الظن إلى العلم الاستدلالي ومن العلم إلى العقل المحض والهابط هو النزول من أعلى المباديء إلى أدناها ووسيلته القسمة ، أما أرسطو فقد فرق بين الجدل والتحليل المنطقي فموضوع التحليل المنطقي عنده هو البرهان أما موضوع الجدل هو الاستدلال المبني على الآراء الراجحة أو المحتملة فالجدل وسط بين الأقاويل البرهانية والأقاويل الخطابية^(٢) .

أما كانظ فقد أطلق لفظ الجدل على المقاييس الوهمية فالجدل هو منطق الظاهر بخلاف التحليل الذي هو منطق الحقيقة . أما هيجل فقد زعم أن الجدل هو التطور المنطقي الذي يوجب ائتلاف القضيتين المتناقضتين واجتماعهما في قضية ثالثة ولهذا التطور الذي هو تطور الفكر والوجود معاً ثلاثة أركان :

الأول / هو الدعوى أو الإيجاب.
الثاني / نقيض الدعوى أو السلب.
الثالث / التركيب وهو التأليف بين الرأيين المتناقضين والجمع بينهما في رأى واحد أعلى منهما (٣).

أما الماركسية فقد أخذت أصول المنطق الجدلي الهيجلي الذي يمتاز بمثاليته وطبقته على جميع نواحي الحياة الإنسانية والوجود لتعلن عن منطق وتفسير جديدين للعالم والحياة الإنسانية وبنيت هذا المنطق أو التفسير على أصول أو ركائز عدة نستطيع تحديدها بما يأتي :

أولاً - حركة التطور :

تؤمن الماركسية أنّ كل شيء في الوجود والعالم في حركة دائمة ومستمرة من أصغر الأشياء في الوجود الى أكبرها ، ولهذا ترى الماركسية على عكس الميثافزيفيا أن كل شيء في حالة من الحركة والتغير المستمر من التجدد والتطور حيث يوجد دائماً شيء صاعد ومتطور وشيء يتحلل ويفنى (٤).

ثانياً - تناقضات التطور :

تؤمن الماركسية بأنّ التناقض سمة عامة في كل العمليات ولكل نوع من أنواع العمليات تناقضاته الخاصة به وهي تناقضات تميزه وتختلف عن تناقضات غيره من العمليات (٥).

ثالثاً : قفزات التطور :

تؤكد الماركسية في هذا الأصل أن عملية التطور ليست عملية بسيطة وتدرجية بل أن التطور يمر من التغيرات الكمية الى التغيرات الصريحة الأساسية أي التغيرات الكيفية التي تحدث فجأة متخذة شكل الوثبة من حالة الى أخرى (٦).

رابعاً - الارتباط العام :

في هذا الأصل تؤكد الماركسية أنّ كل شيء في الوجود مرتبط . فالطبيعة لا ينظر إليها وكأنها أشياء منفصلة بعضها عن البعض ومنعزلة ومستقلة وإنما ينظر إليها وكأنها كل موحد

متماسك ترتبط فيه الأشياء والظواهر فيما بينها إرتباطاً عضوياً ، فالأشياء مرتبطة ومتعلقة بعضها مع البعض الآخر بل يكون بعضها شرطاً للبعض الآخر^(٧) .

هذه إذن الأصول العامة للجدل الذي قسمته الماركسية على أنواعٍ عدةٍ هي: جدل الفكر، وجدل الطبيعة، وجدل التاريخ، وجدل المجتمع .

ثانياً - جدل الطبيعة :

لقد تحدثت الكثير من النصوص الماركسية عن جدل الطبيعة ، فهم يؤكدون على أن الطبيعة في حالة تغير وحركة دائمين، وفي حالة تجدد وتطور لا ينقطعان فالأشياء تولد وتتطور وتنحل وتضمحل^(٨) . يقول أنجلس ، ((إنَّ الطبيعة هي محك الاختبار للديالكتيك ولابد من القول أن علوم الطبيعة الحديثة قد وفرت لهذا الأختبار مواد غنية الى أقصى حد ، وهذه المواد تزداد كل يوم ، وهكذا برهنت هذه العلوم أنَّ الطبيعة هي النتيجة ، تعمل بصورة ديالكتيكية ، لا بصورة ميتافيزيقية وأنها لا تتحرك في دائرة تبقى هي ذاتها دائماً وتكرر الى الأبد ، بل أن لها تاريخاً واقعياً^(٩) .

ويقول أيضاً في نصٍ آخر ((في الفيزياء كل تغير هو مرور من الكمية الى الكيفية هو نتيجة التغير الكمي لكمية الحركة كيفما كان شكلها سواء أكانت ملازمة للجسم من داخله أم مضافة إليه من خارج))^(١٠) . ويقول أنجلس أيضاً عن الكيمياء ((يمكن القول إنَّ الكيمياء هي علم التغيرات الكيفية الناشئة في الأجسام عن تغيرات كمية))^(١١) . فعلى ضوء هذه النصوص فإنَّ الماركسية تؤكد بشكل قاطع على أن الطبيعة والعالم والكون في حالة تغير وتطور مستمرين وهي لا تنظر الى هذا التطور كعملية هادئة مستمرة لا تنقطع بل كعملية تعترض فيها مراحل التطور التدريجي الى انقطاعات في استمرارها بوثبات فجائية من حالة الى أخرى وهي تبحث -أي الماركسية- عن تفسير حركة الكون هذه وقوتها المحركة لا بابتداع خيالي مثالي ، وإنما داخل العمليات المادية ذاتها في التناقضات الداخلية والاتجاهات المتضادة المتنازعة التي تعمل في كل عمليات الطبيعة والمجتمع^(١٢) .

يقول لينين ((الفكرة الأساسية للمادية الجدلية هي : إدراك الاتجاهات المتضادة المتناقضة التي تنفي بعضها البعض في كل ظواهر الطبيعة وعملياتها ، فهذا وحده يزودنا بمفتاح الحركة الذاتية لكل شيء موجود أنه وحده الذي يزودنا بمفتاح الوثبات وانقطاع الاستمرار والتحول الى الضد ودمار القديم وبزوغ الجديد^(١٣) .

من خلال هذه النصوص وغيرها وظهر جلياً أنّ جدل الطبيعة يُعد من المسائل المهمة في الفلسفة الماركسية، وأنّ أهم الشخصيات الماركسية وأبرزها تقول بهذا الجدل أمثال أنجلس ولينين وغيرهم ، وكذا فإنّ هذا الجدل الذي تقول به الماركسية يُعد من الأهمية ما أن جدل الفكر يتوقف على جدل الطبيعة وهذه النقطة هي محور الاختلاف الذي تقول به الماركسية ما بينها وبين المثالية وخصوصاً مثالية هيغل، يقول أنجلس بهذا الصدد ((إنّ المسألة الأساسية الكبيرة لكل الفلسفة الحديثة هي تلك الخاصة بالعلاقة بين الفكر والوجود والإجابة التي قدمها الفلاسفة لهذا السؤال قد قسمتهم الى معسكرين كبيرين ، فمن أكدوا أسبقية الروح على الطبيعة ، وبذلك افترضوا خلق العالم بطريقة أو بأخرى كونوا معسكر المثالية ، أما الآخرون الذين نظروا الى الطبيعة باعتبارها الأسبق فينتمون الى مختلف المدارس المادية))^(١٤) ، كذلك ينقل كيدروف عن لينين قوله ((إنّ توافق الفكر والشيء هو حركة تطورية ويجب أن لا يتصور الفكر (يعني الإنسان) الحقيقة في شكل مجرد مشهد (صورة) شاحبة (باهتة) بدون حركة ، أن المعرفة هي الاقتراب اللامتناهي ، الأبدى للفكر نحو الشيء يجب فهم انعكاس الطبيعة في فكر الإنسان ((ليس كشيء (جامد) (مجرد) بدون حركة ، بدون تناقضات وإنما كعملية تطور أبدية للحركة لولادة التناقضات وحل هذه التناقضات))^(١٥) .

ثالثاً - نقاد جدل الطبيعة :

يصطف بعض الفلاسفة غير الماركسيين مع بعض الفلاسفة الماركسيين تحت هذا العنوان مع ملاحظة أنهم جميعاً أيضاً يُعدون من نقاد الماركسية لا فقط من نقاد جدل الطبيعة،

ولكن الذي يهمننا هنا هو جدل الطبيعة لا غير ، وعلى ضوء هذا نجد أن الماركسيين وغيرهم يعدون قول الفيلسوف الفرنسي كوجيف ((لا يمكن أن يكون ثمة جدل بلا إنسان وبغير أنشطة الإنسان)) نقطة البداية لكل الهجمات المتلاحقة ضد جدل الطبيعة من قبل الماركسيين وغير الماركسيين^(١٦) .

ومن أبرز نقاد جدل الطبيعة من غير الماركسيين هو الفيلسوف كارل بوبر، ففي بحث له تحت عنوان ((ما الجدل)) يقول ((ما في الجدل من غموض خطر اخر من أخطاره لأنه يجعل من السهل اقحام التفسير الجدلي في جميع ميادين التطور حتى على أشياء تختلف فيما بينها اتم الاختلاف فنحن على سبيل المثال نجد تفسيراً جدلياً يوحد بين بذرة القمح وبين القضية ، كما يوحد بين النبات الذي ينمو من هذه البذرة وبين النقيض ثم جميع البذور التي تنمو من هذا النبات مع المركب ومثل هذا التطبيق يوسع المعنى الغامض بالفعل للجدل توسيعاً أكثر مما ينبغي بطريقة تزداد معها خطورته ، وهو يؤدي الى نقطة نجد معها أثناء ذلك أننا حين نصف تطوراً ما بأنه تطور جدلي فأننا لا نقول شيئاً أكثر من أنه تطور يتألف من مراحل غير أن تأويل هذا التطور بقولنا أن عملية الإنبات في النبات هي سلب للبذرة لأن البذرة تتوقف عن الوجود حين يبدأ النبات في النمو . وأن إنتاج مجموعة البذور الجديدة بواسطة النبات هو سلب للسلب أي بداية جديدة من مستوى أعلى من الواضح أن ذلك كله مجرد تلاعب بالألفاظ ولهذا السبب قال أنجلس عن هذا المثال إن في استطاعة طفل صغير أن يفهمه))^(١٧) .

كذلك نجد الفيلسوف الفرنسي الوجودي جان بول سارتر قد هاجم جدل الطبيعة وأكد على أن الماركسية برفضها لجدل الفكر أو رد جدل الفكر الى جدل الطبيعة قد عملت على الغاء الوجود الإنساني^(١٨) . كذلك نرى سارتر يُشير الى أن أنجلس قد طبق القوانين الجدلية على الطبيعة وتبدو هذه الإشارة تتفق مع الرأي القائل إن جدل الطبيعة من اختراع أنجلس ، وأكد سارتر أيضاً على أن جدل الطبيعة ما هو الا نوعٌ من اللاهوت التي ظهرت الماركسية اصلاً لتحاربه^(١٩) .

رابعاً - النقد الماركسيون لجدل الطبيعة :

مثلما أشرنا سابقاً الى أنّ جدل الطبيعة قد لاقى نقداً من بعض الفلاسفة والمفكرين الذين لا ينتمون الى الفلسفة الماركسية أمثال كارل بوبر وجان بول سارتر كذلك نجد أنّ هناك فلاسفة ماركسيين كانت لهم نقود ومواقف سلبية من جدل الطبيعة ، يقول جيرار بن سوسان وجورج لابيكا في كتابهما (معجم الماركسية النقدي) ما نصه ((ديالكتيك الجدلية المادية ذاتها ، لم تحظ هذه الصياغات المتعاقبة التي قدمها أنجلس ولينين بإجماع الماركسيين. فقد تجذر أجمالاً خطان في مجال مثل أشكالية معقدة . لقد نشأ تأويل موضوعي خلال سنوات توسع الاسمية الثانية مجمداً أبحاث أنجلس في صورة نثرية مادية للعالم))^(٢٠) .

ومن بين هؤلاء الماركسيين الذين كان لهم موقفٌ سلبيّ تجاه جدل الطبيعة هو غرامشي الذي الح على البعد التاريخوي للجدلية التاريخية ، وذلك لمنع سقوط الماركسية في فرع من السوسيولوجيا والميتافزيقا المادية. وكان هذا الاستبطان للجدلية في فلسفة البراكسيس بالنسبة لغرامشي بمثابة الطريقة الوحيدة المثمرة لمواصلة تعاليم لينين في الغرب والتعبير عن الشحنة التجديدية اللينينية على المستوى النظري باعتبارها نظرية التغيير الثوري وممارسته وليست هذه التغييرات خارجية بل هي تعبير عن أن فهم الجدلية وممارستها بالنسبة للماركسيين هو رهان وشكل من أشكال صراع الطبقات ذاته. فكل إضفاء لصبغة أو نطولوجية على الجدلية معناه تحولها الى وثاق أيديولوجي^(٢١) .

ولقد شاطر غرامشي الفلاسفة الماركسيين النمساويين بالتأكيد على الجانب التاريخي للفلسفة الماركسية وأن الديالكتيك هو ديالكتيك تاريخي بالدرجة الأساس وأن الذهاب الى أبعد من هذه الحدود أي الى جدل الطبيعة سوف يؤدي الى صبغة أو نطولوجية فهم رفضوا عدّ التحليل السوسيولوجي والتاريخي مماثلاً للتحليل في العلوم الطبيعية ورفضوا حل المسائل الفلسفية بواسطة مادية مباشرة ، ورفض التماثل بين التطور المادي للطبيعة مهما قيل عن ديالكتيكيته والتطور المادي للتاريخ ، فالتطور الاجتماعي لا يخضع الى قوانين مشابهة

للقوانين الطبيعية كما كانت تبالغ في ترديده الماركسية المبسطة والمبتذلة التي كانت ضحية التيار العلموي لذلك العصر^(٢٢).

أما الفيلسوف الفرنسي هنري لوفيفر فإنه يصطف بقوة مع الماركسيين الذين يؤكدون على أنّ جدل الطبيعة ظل غريباً عن الماركسية الأصلية فترة طويلة وأنه لم يشتد ساعده إلا في الفترة التي عاشها أنجلس وحده بعد وفاة ماركس عام ١٨٨٣ وسنوات قليلة في حياته وبصفة عامة في الفترة بين ١٨٧٥-١٨٩٥ وأنه (أي جدل الطبيعة) من مخترعات أنجلس واجتهاد شخصي له ولا علاقة له لا بماركس ولا بالمذهب الماركسي ككل^(٢٣).

ويذهب هنري لوفيفر إلى أنّ الجدل لا ينتمي إلا إلى مجال الفكر، وينحو باللائمة على جدل الطبيعة إذ يعتقد لوفيفر أنّ المسار الحقيقي الذي أدى إلى نشأة جدل الطبيعة هو على النحو الآتي ((يبدأ المرء بتكوين نظرية عامة ويجد جدل الطبيعة ثم يفرضه عندئذ على العلم الطبيعي^(٢٤)). ولنفس هذا المعنى وبنفس هذه الصياغة يؤكد مؤلفي ((معجم الماركسية النقدي)) على أن جورج لوكاش وكورش وغرامشي يؤكدون أيضاً على أن جدل الطبيعة هو من مخترعات أنجلس ((ولكي نجلو هذا الجدل ينبغي أن نشدد على أن مشروع أنجلس ملتبس ليس في أهدافه بل في مجال البحث الذي فتح الطريق أمامه والذي جرى تفسيره فيما بعد تفسيراً متعسفاً على أنه نظرية جاهزة ومتسقة أو نسق جديد أو تصور علمي للطبيعة والتاريخ في حين أنه لم يحم بحل المشكلة التي كان قد طرحها على نفسه في بداية الأمر))^(٢٥).

بل نجد أكثر من ذلك وهو أن أنجلس أراد أن يطبق الجدل الذي قال به ماركس في التاريخ والمجتمع على الطبيعة ((وفي بحثه في علوم الطبيعة أراد أن يستخلص كل نتائج مشروع ماركس ومن وجهة النظر هذه لا يمكن أن يوجد جدل مستقل للطبيعة بل أن هذا الأخير شديد الارتباط بجدل التاريخ الذي يشكل كلاً معقداً ملموساً غير قابل للاختزال^(٢٦) وكذا فإن أنجلس في مشروعه هذا (جدل الطبيعة) قد غير الوظيفة المادية للجدل ((وفي الفكرة الخاصة بجدل الطبيعة يتجابه إذاً تصوران، غير قابلين للاختزال عن الجدل ينبغي أن تسمح

دراسة يقظة لعمل أنجلس بالفصل بينهما بدقة ، وإذا كان أنجلس بتورطه في مشروع نظرية عامة للطبيعة وهو مشروع لم يصل به الى نهايته من جهة أخرى قد غير دون أدنى شك الوظيفة المادية للجدل ، فقد قدم هو ذاته وسائل كشف هذا الانحراف وتصحيحه عند الاقتضاء))^(٢٧) .

خامساً - نقد جورج لوكاش (*) :

من أبرز نقاد جدل الطبيعة الماركسيين هو الفيلسوف المجري جورج لوكاش الذي أثار نقده اللاذع لجدل الطبيعة مشاعر الأستياء والكره من قبل الفلاسفة الماركسيين السوفيت أمثال ديبورين ولوبول وبوخارين الذي أصبح بعد وفاة لينين الناطق الرسمي باسم الحزب الشيوعي السوفيتي حول جميع القضايا النظرية فهذا الأخير يتأسف وبشدة على الاتجاهات الحديثة في الارتداد نحو الهيجلية القديمة^(٢٨) .

ولقد أشار الى ذلك لوكاش وآخرين ممن ينتمون الى الفلسفة الماركسية التي كانت لهم مواقف واضحة وصريحة تجاه بعض الأفكار الماركسية وخصوصاً جدل الطبيعة أمثال كورش وغرامشي وآخرين ((ويرى لوكاش أنّ الماركسية بوصفها هيجلية قد رُفعت أو الغيت واحتفظت بما هو حق في فكر هيجل وعالجت متناقضاته ونقائضه وهو نفسه يحتفظ بالتصور الهيجلي الهام والأساسي عن ((الشمول العيني)) ويرى أنّه المقولة الأساسية للواقع إذ يعتقد أن الحقيقي هو الكل واستمر تصور الشمول هاماً عند لوكاتش، وهو تصور لا يستقيم إلا في جدل التاريخ وحده ، ولا يكون معنى في حديث عن جدل الطبيعة ، ففي المجتمع وحده يمكن أن نقول إنّ الحقيقة هي الكل وإنّ الطبقة لا تحصل على وعي بذاتها إلا إذا استطاعت أن تعرف المجتمع ككل))^(٢٩) .

كذلك نراه في نص له في كتابه (التاريخ والوعي الطبقي) يؤكد على أنّ أنجلس قد ذهب بعيداً في توسيع نطاق الجدل ليشمل الطبيعة بينما هذا غير ما جاء به ماركس وأراده ((إنّ إثارة

وظيفة النظرية هذه تفتح بالحين ذاته الطريق الى معرفة جوهرها النظري اعني المنهجية الجدلية. إنَّ إهمال هذه النقطة الفاصلة يدخل كثيراً من اللخبطة في المناقشات حول المنهجية الجدلية ، إذ لدى انتقاد توسيعات أنجلس (الضرورية لتطوير النظرية اللاحق) أو لدى اعتبارها ناقصة أو غير كافية أو لدى اعتبارها كلاسيكية فيجب مع ذلك المعرفة بأنها ينقصها هذا الحجم، وبالفعل فإنَّ أنجلس وصف مفهوم المنهجية الجدلية بأنَّ جعله مناقضاً للمفهوم الميتافيزيقي ، إنَّه دلل بتعمق على الواقع بأن في المنهجية الجدلية تصلب الأفكار ((والأشياء التي تتواءم معها)). قد أضمل وأنَّ الجدلية هي مسيرة مستمرة سيولية المرور من تقرير الى الآخر وتجاوز مستمر للتناقضات وأنها المعبر لمرور أحدهما نحو الآخر وأنه بالنتيجة يجب إبدال السببية الأحادية الجانب المتصلبة بالتأثير المتبادل على أن المظهر الأساسي لهذا التأثير المتبادل الصلة الجدلية بين الذات والموضوع في سير التاريخ لم تذكر ولم تضع في مركز الدائرة كما يجب أن تكون))^(٣٠) . ويذهب لوكاش أيضاً في مؤلفه نفس على أن ماركس وأفكاره قد أهملت وأنَّ أهم نقطة يجب التركيز عليها في دراسة الماركسية وماركس بالخصوص هو الاقتصاد والتاريخ ((اكتفي هنا طبيعياً بنقد تاريخ ووعي الطبقة ، ما ليس يعني إطلاقاً أنَّ هذا الانحراف بالنسبة للماركسية أيضاً ليس ظاهراً عند مؤلفين آخرين لاتجاه مماثل في مؤلفي أنه يؤثر مباشرةً باذراً الفوضى حول نقاط فاصلة حتى حول مفهوم الاقتصاد الذي كان من الواجب طبيعياً أن يكون المركز المنهجي))^(٣١) .

وفي نصٍ آخر يُشير الى ذلك بكل وضوح قائلاً ((أريد الكلام هنا عن المنحنى بادراك الماركسية فقط كنظرية اجتماعية ، فلسفة اجتماعية ، بتجاهل أو برفض . أخذ الموقف الذي تتضمنه بالنسبة للطبيعة ...)) يأخذ كتابي حول القضية موقفاً واضحاً جداً تمثل الطبيعة مقولة اجتماعية^(٣٢) . ووفقاً لهذه النصوص فإنَّ جدل الطبيعة كان من مخترعات رجال الماركسية السوفيت وخصوصاً أنجلس وأن ماركس لم يكن ليقول بجدل الطبيعة وهو ما أشرنا إليه سابقاً وما يؤكد الكثير من الباحثين الذين كتبوا حول هذا الموضوع .

إنّ موقف لوكاش من جدل الطبيعة هذا أدى بالفلاسفة الماركسيين السوفيت الى النظر إليه بأنه أحد المراجعين الذين أرادوا أن يفسروا ماركس برفضهم لأنجلس، فأجدي الأفكار الأساسية عند لوكاش هي أنه لا يوجد جدل سوى جدل التاريخ أما جدل الطبيعة فهو مستحيل مع أنّ ما هو مستحيل حقاً هو أنّ يقبل المرء تأكيداً بأنّ الجدل هو النشاط المتبادل بين الذات والموضوع ، إنّ رفض جدل الطبيعة وإثبات جدل التاريخ كما يؤكده الفلاسفة السوفيت هو محاولة مدمرة لأنها تقوم على أساس تصور مزدوج أو ثنائي للعالم وأنّ هذه الثنائية هي هجوم على الماركسية، وعليه فإنّ لوكاش وحسب رفضه لجدل الطبيعة وقبوله بجدل التاريخ كان فيلسوفاً مثالياً اذا نظرنا إليه من زاوية الطبيعة لكنه مادي جدلي من زاوية الواقع الاجتماعي التاريخي^(٣٣) .

وهناك من يرى أنّ جورج لوكاش وغرامشي كانا من الراضين لفكرة تطبيق الجدل على الطبيعة وذلك بسبب تأثرهما بالمفاهيم الليسينكوية^(٣٤) ، وأنهما كانا ينظران الى الماركسية بصيغ التاريخ البشري المعزول والمنفصل عن الطبيعة وأنّ دراسة الطبيعة متروك الى مجال العلوم الطبيعية^(٣٥) .

خاتمة البحث

إنّ المنهج الجدلي الذي ورثته الماركسية من الهيجلية القى بظلاله على مجمل مجريات العالم من إنسان ومجتمع وتاريخ واقتصاد وطبيعة وكان هذا الظلال ظللاً مادياً ولهذا فإنّ الفلسفة الماركسية هي فلسفة مادية بامتياز ، وكان العالم الطبيعي من بين المسائل المهمة التي طبق الفلاسفة الماركسيون ((بعضهم لا كلهم)) الجدل عليه وبهذا نتج ما يسمى بجدل الطبيعة الذي يؤمن بأنّ الجدل وقوانينه يشمل الطبيعة بكل تفاصيلها ، هذا القول أدى الى وجود فلاسفة ماركسيين ينتمون لهذه المدرسة ويؤمنون بكل أفكارها وقوانينها ولكنهم يتوقفون طويلاً ويتاملون كثيراً وينتقدون أيضاً هذا النوع من الجدل ، إنّ ماركسيين نمساويين أمثال كورس وغرامشي ولوكاش والفرنسي هنري لوفيفر كانت لهم المواقف النقدية الواضحة من جدل الطبيعة، وابتسط ما يمكن أن يُقال إنهم عدّوا جدل الطبيعة من إبداعات واختراعات أنجلس وإن ماركس بريء من جدل الطبيعة ولم يقل به بتاتاً ، وعندما نفتش عن هذه المسألة نجد أنّ الآراء تتضارب حول موضوع جدل الطبيعة من بين قائل إنّ جدل الطبيعة من مخترعات أنجلس وهذا ما يؤكد نقاد جدل الطبيعة حتى روجيه غارودي الذي ينقل في كتابه النظرية المادية في المعرفة نصاً يقول عنه إنّه من كتاب أنجلس (ديالكتيك الطبيعة) يقول فيه أنجلس ((فنحن على يقين أن المادة في جميع هذه التحولات تبقى كما هي الى الأبد))^(٣٦) .

وهذه إشارة واضحة أنّ أنجلس قد ألف كتاباً تحت عنوان (جدل الطبيعة) ، وهناك آراء ذهبت الى أنّ أنجلس لم يؤلف كتاباً تحت عنوان جدل الطبيعة بل هي محاولات متفرقة أراد بها أن يمد نطاق الجدل الهيجلي بحيث يشمل ميدان العلوم الطبيعية وأنه كان يفكر في تأليف كتاب^(٣٧) . وعلى العموم فإنّ جدل الطبيعة ينتسب بشكل وباخر لأنجلس وهذا ما أكده نقاد جدل الطبيعة من ماركسيين وغير ماركسيين الذين رأوا أنّ هذا الشكل يدخل الماركسية بدوجمائية ميتافيزيقية وأنّ هذا الجدل هو بعيد كل البعد عن الروح الماركسية التي جاء بها ماركس متأثراً بجدل هيجل.

الهوامش

- (١) ينظر : مراد وهبة وآخرون : المعجم الفلسفي ، ط٢ ، مطبعة أحمد عبده أحمد ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص١٩٩-٢٠٠ . كذلك : ينظر : المعجم الفلسفي المختصر ، دار التقدم ، ترجمة توفيق سلوم ، ١٩٨٦ ، مادة (مادة ماركسية)
- (٢) ينظر : جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج١ ، مادة(الجدل) ، ط١ ، مطبعة سليمانزاده ، إيران ، ص٣٩٢ .
- (٣) ينظر : المصدر السابق ، ص٣٩٣ كذلك ينظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة ، ج٢ ، مطبعة سليمانزاده ، ط١ ، قم ، إيران ، ص٥٨٠ .
- (٤) ينظر : افاناسييف ، أسس الفلسفة الماركسية ، ط٣ ، ترجمة : عبد الرزاق الصافي ، مطبعة الرواد ، ص٣٨ .
- (٥) ينظر : إمام عبد الفتاح إمام (تطور الجدل بعد هيجل (جدل الطبيعة) المجلد الثاني ، ط٣ ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٧ ، ص٤٣ .
- (٦) ينظر : ستالين ، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، ترجمة خالد بكداش ، ط٢ ، ١٩٥٩ ، ص١٣-١٤ .
- (٧) ينظر : افاناسييف ، أسس الفلسفة الماركسية ، ص٦٣-٦٥ .
- (٨) ينظر : ستالين ، المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، ص١٤ . كذلك ينظر : جورج بوليتزر ، مباديء أولية في الفلسفة ، نقله الى العربية د. فهمية شرف الدين ، ط٥ ، دار الفارابي، بيروت ، لبنان ، ص١٤٥ .
- (٩) المصدر السابق ، ص١٦ .
- (١٠) المصدر السابق ، ص١٧ .
- (١١) المصدر السابق ، ص١٨ .

- (١٢) ينظر : موريس كورنفورت ، مدخل الى المادية الجدلية ، ترجمة محمد مستجير مصطفى ، ط٣ ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠ ، ص٦٨ .
- (١٣) المصدر السابق ، ص٦٨ .
- (١٤) المصدر السابق ، ص٢٧ نقلاً عن لودفيج فيورباخ ، الفصل الثاني لفرديريك أنجلز .
- (١٥) كيدروف ، المنطق الشكلي والمنطق الديالكتي ، ترجمة محمد عيتاني وسهيل يموت ، دار المعجم العربي ، بيروت ، ص١٠ نقلاً عن لينين الدفاتر الفلسفية ، ص١٦٧-١٦٨ .
- (١٦) ينظر : إمام عبد الفتاح إمام ، تطور الجدل بعد هيجل جدل الطبيعة ، م٢ ، ط٣ ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص٧٣-٧٤ .
- (١٧) المصدر السابق ، ص٧٥ نقلاً عن :

K.popper; " what is Dialectic "in conjectures and pefutions London-Routede and kegan paul-1963.

- (١٨) ينظر : المصدر السابق : ٧٥ .
- (١٩) ينظر : المصدر السابق : ٧٥ .
- (٢٠) مجموعة مؤلفين ، معجم الماركسية النقدي ، ترجمة جماعية ، ط١ ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٣ مادة (ديالكتيك جدلية) ، جدليات ، ص٦٥٨ .
- (٢١) ينظر : المصدر السابق ، ص٦٥٨ .
- (٢٢) ينظر : المصدر السابق : ص١١٥٨ (مادة الماركسية النمساوية) وجاء في تعريف الماركسية النمساوية (بأنها المجموعة المتنوعة للتفسيرات النظرية والعملية المتعلقة بممارسة الحركة الاشتراكية الديمقراطية في الامبراطورية النمساوية المجرية قبل ١٩١٤-١٩١٨ وفي الجمهورية النمساوية فيما بعد وأهم شخصياتها هم : ماكس ادلر وفرنتز مهنينغ وجورج لوكاش وكارل كورش وغيرهم. ينظر : المصدر نفسه (مادة، ماركسية نمساوية).
- (٢٣) ينظر : إمام عبد الفتاح إمام ، تطور الجدل بعد هيجل (جدل الطبيعة) ، ص٦٩ .

- (٢٤) ينظر : المصدر السابق ، ص٦٩-٧٠ .
- (٢٥) ينظر : معجم الماركسية النقدي (مادة ، ديالكتيك الطبيعية)، ص٦٦١-٦٦٢ .
- (٢٦) ينظر : المصدر السابق: ص٦٦٢ .
- (٢٧) المصدر السابق: ص٦٦٣ .
- (*) ولد جورج لوكاش عام ١٨٨٥ في مدينة بودابست وتوفي عام ١٩٧١ .
- (٢٨) ينظر : جورج لختايم ، جورج لوكاش ، ترجمة ماهر الكيالي ويوسف شويري ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص٧٥ .
- (٢٩) إمام عبد الفتاح إمام ، تطور الجدل بعد هيجل (جدل الطبيعة) ، ص٧٠ .
- (٣٠) جورج لوكاش ، التاريخ والوعي الطبقي ، ترجمة الدكتور حسن الشاعر ، ط١ ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ١٩٧٩ ، ص١٥ .
- (٣١) المصدر السابق : ص٢٨٣ .
- (٣٢) المصدر السابق : ص٢٨٣ .
- (٣٣) ينظر : إمام عبد الفتاح إمام ، تطور الجدل بعد هيجل (جدل الطبيعة) ، ص٧٢ .
- (٣٤) الليسينكوية : نسبة الى عالم الزراعة الروسي تروفيم ليسينكو ، وهو تيار يرفض تطبيق الديالكتيك على الطبيعة ومن بين نتائج هذا الرفض إنكاره لعلم الوراثة الجينية.
- ينظر: ثامر الصفار ، الماركسية والايكولوجيا ، ط١ ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٩ . ص٧٧ في الهامش.
- (٣٥) ينظر : ثامر الصفار ، الماركسية والايكولوجيا ، ص٧٨-٧٩ .
- (٣٦) روجية غارودي ، النظرية المادية في المعرفة ، تعريف إبراهيم قريط ، دار دمشق ، دمشق ، سوريا ، ص١٢١ .
- (٣٧) ينظر : إمام عبد الفتاح إمام ، المنهج الجدلي عند هيجل (دراسة لمنطق هيجل) ، ط٣ ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص٣٢١-٣٢٢ .